تشكلات الذات المغتربة في شعر ابن خفاجة الأندلسي

الباحثة/ فاطمة عادل إبراهيم صلاح

إشـــراف

الأستاذ الدكتور/ عبدالجواد شعبان الفحام

الدكتور/ منتصر نبيه محمد صديق

الملخص:

يعد ابن خفاجة الأندلسي من أبرز شعراء الأندلس بشكل عام، وشـــعراء القـــرنين الخامس والسادس الهجريين بشكل خاص، فهو شاعر الطبيعـــة الأول بالأنـــدلس، فنـــشأته بجزيرة شقر التي اشتهرت بأنهارها وحدائقها وطبيعتها الخلابة أثرت في شخصيته، ومـــن ثم حبه للطبيعة، وتجلى ذلك بشكل كبير في قصائده، وإن الذات قد اقتربت في مفهومها من مفهوم عدة مصطلحات أخرى كالأنا، والـــنفس؛ ولكنها في الوقت نفـــسه جـــاءت مختلفـــة عنهم، وقد أصابت الذات الشاعرة لابن خفاجـــة الأندلـــسي بعـــض حـــالات الاغتـــراب، كالاغتراب الزمني والاغتراب المكاني، وكذلك الاغتراب الاجتماعي، وفي كل ذلك حاولت الذات الشاعرة أن تعبر عن تلك الحالات داخل قصائدها، وجاء المكان بوصفه أحـــد أبـــرز الأسباب التي جعلت الذات الشاعرة تعيش حالة من الاغتراب؛ إذ إنها دائمًا ما تحـــن إلـــى أماكن عاشت بها من قبل، وفي الوقت نفسه ترفض أو ربما تكره ذلك المكان الذي تعـــيش فيه؛ لأنه يشعرها بالغربة والوحشة، وقد عانت الذات الـــشاعرة مـــرارة البعـــد والجفـــاء والوحشة من الأهل والإخوان والأصدقاء؛ إذ نجدها تسكن بينهم؛ وكأنها غريبة عـــنهم، ولا تجد منهم ألفة أو قربًا، ومن ثمَّ فهي تشعر بذلك الاغتراب، الذي يملوهـــا حـــسرة وحزنًـــا وألمًا، وهي في هذا تصور إحساسها وغربتها وتنقلها لنا داخل أشعارها المتعددة.

الكلمات المفتاحية: الذات؛ الاغتراب؛ الأنا؛ الزمان؛ المكان

Abstract:

Ibn Khafaja Al-Andalusi is considered one of the most prominent poets of Andalusia in general, and the poets of the fifth and sixth centuries AH in particular. He was the first nature poet in Andalusia. His upbringing on Shaqar Island, which was famous for its rivers, gardens, and picturesque nature, influenced his personality, and then his love for nature, and this was greatly demonstrated in his poems. The self has come close in its concept to the concept of several other terms, such as the ego and the soul. But at the same time, she was different from them, and the poetic self of Ibn Khafajah Al-Andalusi was afflicted with some cases of alienation, such as temporal alienation, spatial alienation, as well as social alienation, and in all of this the poetic self tried to express these states within her poems.

The place came as one of the most prominent reasons that made the poet's self live in a state of alienation. She always longs for places she lived before, and at the same time rejects or perhaps hates that place in which she lives; Because he makes her feel alienated and lonely.

The poet's self suffered the bitterness of distance, estrangement, and loneliness from family, brothers, and friends. As we find her dwelling among them; It is as if she is a stranger to them, and does not find familiarity or closeness to them, and therefore she feels this alienation, which fills her with regret, sadness, and pain. In this, she depicts her feeling and alienation and conveys it to us in her many poems.

key words: Self; Alienation; ego; time; Place

المقدمـــــة:

أظهرت أشعار ابن خفاجة ثقافته الواسعة، وحبه للعلم والمعرفة، واطلاعه على ثقافات وأجناس متعددة؛ كما أن بلاد المشرق قد حظيت بمكانة كبيرة لديه، ومن ثمّ ظهرت في أشعاره علاقاته المتنوعة بمن حوله، وكذلك تعبيره عن ذاته الشعرية بكلّ حالاتها؛ ولذلك جاءت فكرة هذا البحث معنون بـ **(تشكلات الذات المغتربة في شعر ابن خفاجة الأندلسي)، ويقصد بالذات** في هذه الدراسة ذات الشاعر وقت الإبداع، وما يحيط بها من ظروف يجعلها تتشكل تبعًا لذلك فهي مجموع المشاعر الإنسانية، والعواطف، وكذلك الجوانب النفسية التي دفعتها ظروف معينة لإنتاج نص ما يعبر عن تجربتها.

أما عن أسباب اختيار موضوع الدراسة:

فقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع جملةً من الأسباب لعل من أهمها:

١- إن الشعر الأندلسي لم يأخذ حقه بعد من الدراسة والبحث مقارنة بالشعر العربي المشرقي بوجه عام، ولذلك أردت إضافة دراسة جديدة إلى المكتبة الأندلسية.

٢- إن الشعر الأندلسي يتسم بظواهر موضوعية وفنية جديرة بالبحث والدراسة، فهو يتميز عن باقي عصور الشعر الأخرى بخصوصية المكان، واختلاط الأجناس والحضارات، وكل ذلك أثر في مضمون الشعر وأسلوبه.

٣- إن موضوع الذات المغتربة في شعر ابن خفاجة الأندلسي لم يتطرق أحد من الباحثين لدراسته بصورة مستقلة.

٤- تريد الباحثة أن ترصد تشكلات الذات المغتربة في شعر ابن خفاجة الأندلسي.

منهج الدراسة:

اعتمدت الباحثة في هذه الدراسة على المنهج الفني؛ لترصد من خلاله أبرز العناصر الموضوعية والفنية لتشكلات الذات المغتربة في شعر ابن خفاجة الأندلسي. وذلك من خلال البحث عن أبرز المعاني العميقة التي أظهرتها النصوص المرتبطة بهذه الذات.

خطة الدراسة:

اقتضت طبيعة الدراسة أن تتكون من ثلاثة مباحث، يسبقها مقدمة وتمهيد، ويعقبها خاتمة بأهم النتائج التي توصل إليها البحث، وثبت المصادر والمراجع، وهي كالآتي:

المقدمة: وفيها (موضوع البحث، وأسباب اختيار الموضوع، والمنهج المتبع، وخطة الدراسة).

التمهيد: وفيه تناولت الحديث عن مفهوم الذات.

-**المبحث الأول:** الذات المغتربة زمانيًا.

- **المبحث الثاني:** الذات المغتربة مكانيًّا.
- **المبحث الثالث:** الذات المغتربة اجتماعيًّا.

التمهيـــد:

الذات هي شعور الفرد بوجوده ونظرته لنفسه وقدراته ومهاراته، وقد تتكون الذات نتيجة الخبرات التي مر بها الإنسان وعاشها في حياته وكذلك تتكون نتيجة لتأثره مع البيئـــة والمجتمع المحيط فالذات هي فكر الشخص المكون عن نفسه وعلاقته بالبيئة المحيطة بـــه. "فالذات قد تمتص قيم الآخرين وتسعى إلى التوافق والثبات وتنمو نتيجة للنهج والتعلم"(١).

وقد كثرت المصطلحات التي ترتبط بلفظة الذات وترمز إلى هذا المـــصطلح إلا أن معاجم اللغة العربية والكتب قديمًا وحديثًا والدراسات قد تتقارب وتتفق على أن لفظة الذات اسم بمعنى صاحب/ صاحبة وهي مؤنث (ذو) يثنى علـــى ذات أو ذوات والجمـــع (ذوون) وتفسيره صاحب كقول ذو مال أي صاحبه.

ففي القاموس المحيط جاءت الذات بمعنى "الحال وبيان الحال وحقيقتة كقولـــه فـــي سورة الأنفال فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، ذو معناها: صاحب، ذات البين: الحال التـــي به يجتمع المسلمون"(٢).

أي حقيقة ما بينكم بالمودة وترك النزاع والخصام (حقيقة وصلكم) وقد ذكـــر ابـــن منظور في كتابه لشان العرب أن مصطلح الذات جاء أيضًا بمعنى" بيان الحـــال وحقيقتـــه (فَاتّقُوا اللّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)" (٣) ويشير هنا ابن منظور إلى أن لفظة الذات تدل علـــى صاحب الشيء وحقيقته أي حقيقة ما بينكم/ حالكم بالمودة، وترك النزاع والخصام والتزموا طاعة الله ورسوله كما ذكر في قوله تعالى.

وكذلك قد جاءت النفس بمعنى الذات، والنفس تعني ذات الشيء وعينه كما ذكر في قوله تعالى: "تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ"، والمعنى هنا أن تعلم ما بداخلي ومـــا اعتقده، وتعلم سري ولا أعلم سرك وما يبدو منك. ومعنى ذلك في القاموس المحيط: أي ما عندي وعندك أو حقيقتي وحقيقتك"(٤).

فقد تعددت معاني الذات فجاءت أيضًا بمعنى النفس والشخص أي حقيقتة وجوهرة، يقال في الأدب نقد ذاتي يعبر عن آراء وانفعالات، وبهذا يركز على الصفات الفردية فـــي الجوانب الشخصية.

---

(١) د. حامد عبد السلام زهران، علم نفس النمو- عالم الكتب، ط٦، سنة ٢٠٠٥م، ص٢٩٩.

(٢) الفيروز ابادى، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ٢٠٠٤م/ ١٤٢٥هـ، مادة (ذات)، ص ١٣٥٦.

(٣) ابن منظور: لسان العرب أعد بناءه يوسف خياط ونديم مرعشلي، دار لبنان العرب، بيروت المجلد الأول مادة (ذات)، ص ١٠٤٩- ١٠٥٠.

(٤) الفيروز ابادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ٢٠٤م/ ١٤٢٥هـ بيروت، لبنان مادة ذات ص٦٠١.

وقد نجد فيما ورد في المعاجم والكتب العربية أن الذات قد شملت العديد من المعاني، فجاءت بمعنى النفس والشخص وتتمثل في الذات الداخلية، وجاءت بمعنى صاحب أو صاحبة ونفس الشيء وعينه وتتمثل في الذات الظاهرة.

وقد تشابه مصطلح الذات لغويًا بمصطلحات أخرى بدرجة كبيرة:

الأنا: ظهر مصطلح الأنا بشكل واضح على يد التحليل النفسي، فالأنا في علم النفس تعني إحساس وإدراك الشخص الزائد لذاته المتطور وهويته، وفي ذات الوقت متصل مع بيئته والعالم الخارجي بحيث يتحكم في ما تهواه النفس وإشباع مطالبها وفقًا لما يليق بمباديء ومعايير واقعه الاجتماعي في بيئته، "فالأنا في علم النفس هي الذات المدركة العاقلة لتصرفات الإنسان بوصفه فردًا ما في مجتمع له دوافعه ورغباته وطلباته ويتفاعل مع المحيط من حوله وفق متطلبات إنسانية الوجود الذي هو وهم فيه" (١).

وإن الأنا انتقاء مدرك منتبه يضبط ويرشد أفعال الجسد الإنساني ومتطلباته ورغباته كفرد إنساني في مجتمع، فالأنا تكون وتنظم الإنسان تكونًا واعيًا مدركًا، فهي عامل أساسيّ للمعرفة والإدراك، الذي يتوالى مهمة الدفاع والإرشاد، حيث يوجه الشخصية ويعمل على توافق هذه الشخصية بما يناسب ويليق مع واقع البيئة المحيطة به والآخرين.

وإن عامل المعرفة والإدراك الذي تقدمه الأنا" يرشد وعي الشخص ويلائم اتجاهه وسبيله، بحيث يعي ما يدور حوله و يستوعب الوجود الذي يتواجد فيه، "مما يعني أن الأنا انتقاء واصطفاء يكفي لإعطاء هذا المنتقى سمة التميز بما انتقى والتعمد في الاصطفاء والانتقاء يعني أنه لابد من سبق للوعي في النفس الإنسانية حتى تتشكل الأنا"(٢).

فالأنا تتواجد وتخلق من تدبر وتروى أنا أخرى توجد بداخلها تنبهها، وهي الأنا الواعية المدركة تمعن النظر بها وتفكر بها تفكير صائب ترتبها وتضعها حتى تصوغ وتشكل ملامحها بشكل مميز، وكذلك تقوم بالبحث في جوهرها الأساسي بها وثوابتها حتى تشكل منها مادة بها ثوابت ومميزات أو سمات وأسس معينة وهذه المادة تسمى "ذات" حتى تنشأ العلاقة مع "الآخر" وبذلك تكون قد قامت بمراحل من الاصطفاء والانتقاء حتى التميز، وهذا يعني أن المعرفة لا تتواجد إلا على أساس الوعي، "وتبدأ علاقة "الذات" بـــ

(١) عبدالله بن محمد طاهر تريسي، ثنائية الأنا والآخر(الصعاليك والمجتمع الجاهلي)، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب، دمشق، سوريا، العدد المزدوج ١٢٠– ١٢١، رمضان ذو الحجة ١٤٢١هـ، السنة الثلاثون ص١٧٠.

(٢) عبدالله بن محمد طاهر تريسي، ثنائية الأنا والآخر(الصعاليك والمجتمع الجاهلي)، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب، دمشق، سوريا، العدد المزدوج ١٢٠– ١٢١، رمضان ذو الحجة ١٤٢١هـ، السنة الثلاثون ص١٧٠.

"الأنا" في مرحلة تشبه مرحلة المرآة عند علماء النفس التي تعني أن ثمة شيء لا يمكن أن أراه إلا إذا نظرت إليه من الخارج[١].

لا تتواجد الذات إلا بالتأكيد والتحقق الواقعي والحقيقي للأنا المندمجة بالأفعال والفضائل السامية، فنتيجة مرحلة اختيار الصفات التي تسمى مرحلة الانتقاء والاصطفاء التي تمر بها الأنا تنشأ شخصية الذات بما تضمن صفات تميزها.

وهي اسمى درجة تقتدي بها الأنا وتطمح في نيل وبلوغ هذه الدرجة من الرفعة، "إذ تبدأ الأنا بالتفكير فيما يجب أن تكون عليه ثم تنتقل إلى الفعل في طريق بناء "الذات" الشخصية لتنتهي ببلورة الهوية المعبرة عن هذه الأنا الجديدة، التي انتقلت من مرحلة الفعل إلى التحقق"[٢].

أما عندما تريد الأنا أن تتفاعل مع العالم الخارجي فإنها تخرج وتثبت ذاتها، فبذلك تبني ذاتًا بها القدرة والكفاءة على الفعل؛ لأنها المركز الأساسي والمتكفل للشخصية، وبهذا تكون انتقلت الأنا من مرحلة البناء إلى مرحلة الاكتمال.

وقد تتواجد الأنا مع الإنسان عندما يكون مدركًا وواعيًا لما يريد، وهي مرحلة في حياة الإنسان تبدأ بعد الطفولة، وفي ذات الوقت لم يكن يدرك واقعه الخارجي على حقيقته بما يشمل عادات وتقاليد وقوانين. والأنا تدل على الإنسان وهو يعيش منفردًا مع الإدراك والفهم وشعوره بما في نفسه فهنا الأنا تقتصر على الشخص وحده، ولم يكن الفرد يدرك ما يحيط به في المجتمع.

فالإنسان يتجه ويميل تلقائيًا في إثبات شخصيته، وبذلك تغلب حياته الشخصية الخاصة على الحياة العامة، ثم تتلو هذه المرحلة مرحلة إدراك الشخص لمجتمعه ومقتضياته ومبادئه، فعندما يفكر الإنسان في دمج وجمع شعوره وإحساسه بذاته وشعوره بالبيئة التي يعيش فيها وبذلك ينتقل من مرحلة إلى مرحلة وهي مرحلة انتقال "الأنا" إلى الذات.فـ "(الأنا) تكون عند الإنسان فردًا معبرًا عن شخصه ونفسه وسلوكه، و(الذات) تأتيه في مرحلة لاحقة إذا ما زاد وعيه واتسع تفكيره، وأصبح يتحرك وفق جماعة أو أمه ويعبر من خلالها ويتصرف بما تقتضيه ولم يعد مقتصرًا على التعبير عن شخصه متفردًا"[٣].

---

(١) علاء عبدالهادي، شعرية الهوية ونقض فكرة الأصل، ص٢٨٦.

(٢) عبدالله بن محمد طاهر تريسي، ثنائية الأنا والآخر(الصعاليك والمجتمع الجاهلي)، ص١٧١.

(٣) محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة، ط٢، ٢٠٠٣م، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ص ٤٦.

والذات عند الدكتور عزت قرني تعرف بأنها كيان وهيئة لا يحجب وراءها شيء، تظهر الذات بوضوح وهي متصلة بنفسها وواعية لذاتها ومتصلة وعلى وعي بالمجتمع والعالم الخارجي بمقتضياته ومبادئه، فهي تبلغ تمام الوعي بذاتها وفي ذات الوقت تكن واعية بالمجتمع والعالم الخارجي والآخر... لذلك فالكيان هنا يدل على الأنا. "فالأنا هي ضمير المتكلم المفرد، ومن هنا فهي الدلالة اللغوية على الذات فكأن الذات تنظيم، والأنا تعبير عنه في مواجهة الآخر لغويًا"[1]، فإدراك الشخص شئونه الخاصة به تجعله يدرك الآخرين وما يحيط به في المجتمع.

(1) د. عزت قرني، الذات ونظرية الفعل، بناء الفلسفة الجديدة، دار قباء للنشر، القاهرة، ٢٠٠١ م، ص٢٤.

المبحث الأول/ الذات المغتربة زمانيًا:

لقد عانت الذات الشاعرة عند ابن خفاجة الأندلسي بعض حالات الاغتراب التي أنتجتها الظروف والحوادث الاجتماعية، إذ إن الشاعر هو مرآة عصره، يتأثر ويؤثر في مجتمعه، لينقل لنا الصورة مكتملة حسب ما يشعر به، وما يتصوره في تخيله، وقد شكى ابن خفتجة الأندلسي تقلبات الدهر، وعانى فجائعه، فراح يصورها لنا من خلال أشعاره، في ضوء الذات المغتربة زمانيًا، إذ تأثرت ذاته تأثرًا كبيرًا، بما تلاقيه وترقبه، ومنه قوله حين نظر إلى شيخوخته وشعر بنهايته:

أَلا إِنَّهـــا ســـنٌّ تَزيـــدُ فَـــأَنقُصُ وَنفـــضَةُ حُمّـــى تَعتَرينـــي فَـــأَرقُصُ

فَهـــا أنـــا أَمحـــو ماجَنَيـــتُ بِعَبرَتـــي وَأَنظُـــرُ فـــي ماقَـــد عَمِلـــتُ أُمَحِّـــصُ

وَأَلمَـــحُ أَعقـــابَ الأُمـــورِ فَـــأَرعَوي وَيُعمـــى عَلَـــيَّ الأَمـــرُ طَـــوراً فَـــأُفحَصُ

وَيـــا رُبَّ ذَيـــلٍ لِلـــشَبابِ سَـــحَبتُهُ وَمـــا كُنـــتُ أَدري أَنَّـــهُ سَـــيُقَلَّصُ

وَلَمحَـــةِ عَـــيشٍ بَـــينَ كَـــأسٍ رَوِيَّـــةٍ تُـــدارُ وَظَبـــيٍ بِـــاللِوى يَتَقَـــنَّصُ

أَلا بـــانَ عَـــيشٌ كـــانَ يَنـــدى غَـــضارَةً فَيالَيـــتَ ذاكَ العَـــيشَ لَـــو كـــانَ يَـــنكُصُ

وَعِـــزُّ شَـــبابٍ كـــانَ قَـــد هـــانَ بُرهَـــةً أَلا إِنَّهـــا الأَعـــلاقُ تَغلـــو وَتَـــرخُصُ

فَمَـــن مُبلِـــغٌ تِلـــكَ اللَيـــالي تَحِيَّـــةً تُعَـــمُّ بِهـــا طَـــوراً وَطَـــوراً تُخَـــصَّصُ

عَلـــى حـــينَ لاذاكَ الغَمـــامُ يُظِلُّنـــي وَلا بَـــردُ تِلـــكَ الـــريحِ يَـــسري وَيَخلُـــصُ

وَقَـــد طَلَعَـــت لِلـــشَيبِ بـــيضُ كَواكِـــبٍ أُقَلِّـــبُ فيهـــا نـــاظِري أَتَخَـــرَّصُ

كَـــأَن لَـــم أُقَبِّـــل صَـــفحَةَ الـــشَمسِ لَيلَـــةً وَلَم يَنتَعِل بي دونَهـــا الـــشَمسَ أَخمَـــصُ[1].

فالذات هنا في حالة من الغم والحزن فهي تعيش في اغتراب زماني وتريد أن توقف الزمان، ولكنها لا تستطيع، وترى إنه كلما تقدم عمرها وزاد فقد تأخرت وقربت نهايتها، وإنها كلما تذكرت ما حل بها أصابها القشعريرة فتهتز ألمًا، خلاف أيام صباها التي كانت تهتز فيه طربًا ونشوة.

(1) ابن خفاجة: ديوانه، ص ١٨٤، ١٨٥.

والشاعر هنا دفعته شيخوخته إلى النظر والبحث في ما جناه بحياته، ليمحوه بالتوبة والاستغفار حتى يمحص/ ينظف ما أصابه من شوائب الحياة ويعود صالحًا طاهرًا.

ويتعجب الشاعر من الزمان في حسرة، وكيف جر الزمان الشباب وأيام الطيش واللهو وهو غير منتبه، فقد أوصله إلى اقتراب الأجل ونهايته. فالذات الشاعرة لا تدرك ماذا تفعل حتى تعيد ذلك العهد مرة أخرى، فهي تتشوق إلى ذلك الزمان وسعة وطيب أيامه التي كانت تروقها، فتمنى أن يرجع هذا الزمن بحسنه؛ ليتمتع بحياته من جديد، فيرسل الشاعر تحياته المخصصة إلى ذلك العهد الذي اتسم بحسن أيامه وجمالها، ولذلك تشكو الذات الشيب الذي احتل رأسها، حتى إنه يماثل نور الكوكب من شدة بياضه، فقد أخذها هذا الشيب إلى حياة لم تكن تريدها، وتتعجب في حسرة كيف كانت في الماضي تتبختر وتتباهى كأنها فوق الشمس، ثم كيف تغيرت أحوالها إلى مرارة الشيب.

أَلا مَضى عَصرُ الصِبا فَانقَضى وَحَبَّذا عَصرُ شَبابٍ مَضى

بِتُّ بِهِ تَحتَ ظِلالِ المُنى مُجتَنِباً مِنهُ ثِمارَ الرِضا

ثُمَّ مَضى أَحسِبُهُ كَوكَباً مُنكَدِراً أَو بارِقاً مومِضا

فَما تَصَدّى يَنتَحي مُقبِلاً حَتّى تَوَلّى يَنثَني مُعرِضا

وَمَرَّ لايَلوي وَما ضَرَّ مَن أَعرَضَ لَو سَلَّمَ أَو عَرَّضا

وَإِنَّما ضاءَ بِلَيلِ الصِبا صُبحُ مَشيبٍ ساءَني أَن أَضا

لاحَ فَفي عَينَيَّ نورُ الهُدى مِنهُ وَفي قَلبي نارُ الغَضا

وَابيَضَّ مِن فَودي بِهِ أَسوَدٌ كُنتُ أَرى اللَيلَ بِهِ أَبيَضا[1]

وفي موضوع آخر نجد أن الذات الشاعرة تنعي شبابها وتبكي على ضياعه، ومن ثم فهي تشعر بالاغتراب الزماني قائلة:

في هذه الأبيات نرى الذات الشاعرة يستولى عليها الحزن العميق بسبب اغترابها الزمني، فقد ذهب عصر الشباب وأصبح ماضيًا ولن تستطيع إعادته مرة أخرى، فهي تتشوق إلى الصبا حيث كانت في حياة منعمة طيبة رغدة تأخذ منها ما يحلو لها ويرضيها. وقد مضى هذا العصر على عجل حتى ظنته كوكبًا مسرعًا أو كالبرق في سرعته، وإن

(1) ابن خفاجة: ديوانه، ص ١٨٦.

الزمان لو كان باستطاعته أن يتحدث لقال إنه قد فعل كل ما بوسعه لكنه تركها لمرحلة الشيب؛ لأن العمر كذلك لا يبالي بشيء.

وقد اعتمد الشاعر في هذه الأبيات على عنصر التضاد ممثلًا في نور الشيب الأبيض وسواد شعر الصبا (ليل الصبا، صبح الشيب) وهذا يبين لنا مدى تفجع الشاعر وصراعه بين الصبا والمشيب، فالشباب تمثل للذات الشاعرة الحياة المشرقة الذاهية عكس ما حل بها من معأناة الشيب. ففي مرحلة الشيب أصبحت تائبة مهتدية لكن في قلبها نار الندم على فراق الماضي.

أَلا سَرَتِ القَبولُ وَلَو نَسيما وَجاذَبَني الشَبابُ وَلَو قَسيما

وَطالَعَني الظَلامُ بِهِ خَيالاً فَأَقبَلَ ناظِري وَجهاً وَسيما

تَقَضّى غَيرَ لَيلٍ ماتَقَضّى كَأَنَّ بِمَضجَعي فيهِ سَليما

أُصانِعُ طَرفاً قَد تَجافى غِرارَ النَومِ أَو قَلباً أَليما[1]

ونجد أن الذات الشاعرة تعبر عن اغترابها الزمني كذلك في موضوع آخر وتبكي على شبابها قائلةً:

إن الذات الشاعرة تقف متوجعة لغربتها أمام فجيعة الزمان وفقدها للشباب فترى نفسها في صراع بين الصبا والمشيب، وإن الصبا لم تعد تتملكه والشباب قد مر في سرعة وكأنه ريح لطيفة وكم تتمنى لو أتاها الشباب حتى إذا كان قسمًا منه. ومن ثم تعبر عن حسرتها ففي سواد الصبا حل المشيب، ببياضه وكأنه وجه ضاحك وسيم. فتكشف لنا الذات شعورها بمرارة فقدها لصباها. فهي تتضح أن تهون مشقة الدهر على ذاتها ولكنها لم تستطع فقد بعد عنها النوم واستمر قبلها في لوعة وحسرة.

ويمثل الشيب أقوى صور الغربة والانكسار والحزن عند الذات الشاعرة، ومن ثم فهي تسعى دومًا إلى الحديث عنه؛ ليصور غربتها واغترابها، فنراها تقول في موضع آخر:

أَرِقتُ عَلى الصِبا لِطُلوعِ نَجمٍ أُسَمّيهِ مُسامَحَةً مَشيبا

كَفاني رُزءَ نَفسٍ أَن تَبَدّى وَأَعظَمُ مِنهُ رُزءاً أَن يَغيبا

---

(1) ابن خفاجة: ديوانه، ص ٢٨١.

وَلَـــولا أَن يَـــشُقُّ عَلَـــى الغَـــواني لَلاقَيـــتُ الفَتـــاةَ بِـــهِ خَـــضيبا
فَلَـــم أَعـــدَم هُنـــاكَ بِـــهِ شَـــفيعاً إِلـــى أَمَـــلٍ وَلَـــم أَبـــرَح حَبيبـــا
غَريبَـــةُ شَـــيبِ فَـــودٍ إِن تَراخَـــت حَيـــاتي آلَ أَســـوَدُهُ غَريبـــا
شَـــنِئتُ بِمُجتَلاهـــا النـــورَ حَتّـــى شَـــنِئتُ بِمُجتَلـــى النـــورِ القَـــضيبا[1]

والذات الشاعرة هنا تشكو انكسارها وحزنها باغترابها الزماني بسبب الشيب فتنقل لنا صورة المشيب وكأن بياضه يشبه النجم في الليل وهذا النجم/ الشيب ينـذر لهـا عـن النهاية وانتهاء الأجل والهلاك والاغتراب، كما إن إحساس الشاعر بالأنطفـاء والألـم بمـا أحل به من شيب وكبر، وكذا فقده لزمن الشباب وما به من متعة يمثل له مصيبة وحـسرة أعظم من زمن المشيب، فهو يكره المشيب وينبذه ويتألم على غيب الشباب، وهو يـرى أن حقيقة هذا الزمن (زمن المشيب) أنه لم يجد به صديقًا أو حبيبًا، وكأنه أصبح ينتظر موتـه فقط، فيتعجب كيف تحولت حياته من زمن السكون والفرح إلى العزلـة والفنـاء وأصـبح الشيب الأبيض يملأ جانبي رأسه بعد أن كان سوادًا حالكًا.

وتأتي الذكريات الحزينة كأحد أهم أسباب الاغتراب الزمني الـذي تعانيـه الـذات الشاعرة، ومن ثم فهي تعبر عن ذلك داخل أشعارها قائلة:

سَـــجَعتُ وَقَـــد غَنّـــى الحَمـــامُ فَرَجَّعـــا وَمـــا كُنـــتُ لَـــولا أَن يُغَنّـــي لَأَســـجَعا
وَأَوجَـــعُ تَوديـــعِ الأَحِبَّـــةِ فُرقَـــةً شَـــبابٌ عَلـــى رُغـــمِ الأَحِبَّـــةِ وَدَّعـــا
وَمـــا كـــانَ أَشـــهى ذَلِـــكَ اللَيـــلَ مَرقَـــداً وَأَنـــدى مُحَيّـــا ذَلِـــكَ الـــصُبحِ مَطلِعـــا
وَأَقـــصَرَ ذاكَ العَهـــدَ يَومـــاً وَلَيلَـــةً وَأَطيَـــبَ ذاكَ العَـــيشَ ظِلّـــاً وَمَرتَعـــا
زَمـــانٌ تَقَـــضّى غَيـــرَ عَهـــدِ مَحاســـنٍ تَـــسومُ حَـــصاةَ القَلـــبِ أَن تَتَـــصَدَّعا
تَحَوَّلـــتُ عَنـــهُ لَـــا اِختِيـــاراً وَرُبَّمـــا وَجَعـــتُ عَلـــى طـــولِ التَلَـــدُّدِ أَخـــدَعا
وَقَـــد فـــاتَ ذاكَ العَهـــدُ إِلّـــا تَـــذَكُّراً لَـــواني عَلـــى ظَهـــرِ المَطِـــيِّ تَوَجَّعـــا
وَكُنـــتُ جَليـــدَ القَلـــبِ وَالـــشَمَلُ جـــامِعٌ فَما اِنفَـــضَّ حَتّـــى حـــارَ فَـــارِفَضَّ أَدمُعـــا
وَبَلَّـــت نِجـــادي عَبـــرَةٌ مُـــستَهِلَّةٌ أُكَفكِـــفُ مِنهـــا بِالبَنـــانِ تَـــصَنُّعا

(1) ابن خفاجة: ديوانه، ص٦٥.

وَإِنّـــي وَعَينـــي بِـــالظَلامِ كَحيلَـــةٌ لَـــآبى لِجَنبـــي أَن يُلائِـــمَ مَـــضجَعا

وَأُكبِـــرُ شَـــأنا أَن أَرى الـــصُبحَ أَبيَـــضاً بِعَـــينٍ تَـــرى رَبـــعَ الـــشَبيبَةِ بَلقَعـــا[1]

ينبعث هنا من الذات الشاعرة مشاعر الحزن والألم تجاه معاناتها مع اغترابها الزماني، وتصور أن غناء الحمام هو الذي يهيج في نفسيتها مشاعر الحزن والألم، حيث إنها أعادت لها ذكرياتها وأوجاعها في فراقها للأحبة وشعورها بالأسى على أيامها المشرقة وصباها الذي انتهى.

وتعبر الذات عن شوقها ونزوع نفسها إلى الماضي، فتصف هذه الليالي وجمالها المتناغم مع مطلع الصباح، وتخبرنا عن قصر ذلك العهد ولياليه وحسن الحياة فيه، فقد ذهب وابتعد ذلك الزمان على غير إرادتها وجعل قلبها منفطرًا بالحزن والحسرة والوجع، فهي تتمنى أن تسترجع ذلك الزمان الذي جعل فقدُه عينيها تسيل وتتدفق بالدموع الغزيرة، فقد كان يجمع الأحبة وكانت هي شديدة القلب فيه، وأن ما أصاب الذات الشاعرة من ذبول بهذا الشيب والتحول جعل عظيم حاجتها أن ترى نور الصباح وإشراقه بعد أن أصبحت عيناها مفعمة بالظلام، فترى هذا الواقع لا حياة به ولا أنيس.

المبحث الثاني/ الذات المغتربة مكانيًا:

جاء المكان كاحد أبرز الأسباب التي جعلت الذات الشاعرة تعيش حالة من الاغتراب، إذ إنها دائمًا ما تحن إلى أماكن عاشت بها من قبل، وفي الوقت نفسه ترفض أو ربما تكره ذلك المكان الذي تعيش فيه؛ لأنه يشعرها بالغربة والوحشة.

والذات الشاعرة دائمًا ما تشكو حالها وغربتها المكانية، معلنة عن تمردها على هذه الغربة، وعلى هذا المكان، ومن ثم فقد راحت تصور ذلك داخل قصائدها المتعددة، حيث نراها تقول في إحدى القصائد:

أَجَبـــتُ وَقَـــد نـــادى الغَـــرامُ فَأَســـمَعا عَـــشِيَّةَ غَنّـــاني الحَمـــامُ فَرَجَّعـــا

فَقُلـــتُ وَلـــي دَمـــعٌ تَرَقـــرَقَ فَـــانهَمى يَـــسيلُ وَصَـــبرٌ قَـــد وَهـــى فَتَضَعـــضَعا

أَلا هَـــل إِلـــى أَرضِ الجَزيـــرَةِ أَوبَـــةٌ فَأَســـكُنَ أَنفاســـاً وَأَهـــدَأَ مَـــضجَعا[2]

تحمل الذات الشاعرة في هذه الأبيات حزنًا عميقًا؛ لاغترابها وبعدها عن مكانها ومنشأها الأصلي، وتصور الحمام بغنائه بأنه قد أثار بداخلها الحنين والشوق إلى هذا

(1) ابن خفاجة: ديوانه، ص١٩٠.

(2) ابن خفاجة: ديوانه، ص١٨٩.

المكان، وأصبحت تحادثه وكأن ذلك الحمام آنسها في غربتها، فقد حنت الذات إلى مكانها وأيامها السابقة حتى ضعف صبرها وأصبحت دموعها تسكب وتنهمر بغزارة بعد هذا التشتت والتفرق الذي حلَّ بها، فإن أرض الجزيرة كانت تتميز لدى الشاعر بالوجدان والألفة والاطمئنان، فإذا رجع إليها استعاد هدوءَه وسكونَه وراحتَه.

وفي موضع آخر من الديوان نجد الذات الشاعرةتعبر عن اغترابها المكاني بعد أن نفد صبرها وامتلأت عيناها بالدموع قائلة:

فَيا لِشَجا قَلبٍ مِنَ الصَبرِ فارِغٍ ... وَيا لِقَذى طَرفٍ مِنَ الدَمعِ مَلآنِ

وَنَفسٍ إِلى جَوِّ الكَنيسَةِ صَبَّةٍ ... وَقَلبٍ إِلى أُفقِ الجَزيرَةِ حَنّانِ

تَعَوَّضتُ مِن واهاً بِآهٍ وَمِن هَوىً ... بِهَونٍ وَمِن إِخوانِ صِدقٍ بِخَوّانِ

وَما كُلُّ بَيضاءٍ بَروقٍ بِشَحمَةٍ ... وَما كُلُّ مَرعىً تَرتَعيهِ بِسُعدانِ

فَيا لَيتَ شِعري هَل لِدَهرِيَ عَطفَةٌ ... فَتُجمَعَ أَوطاري عَلَيَّ وَأَوطاني

مَيادينُ أَوطاري وَلَذَّةُ لَذَّتي ... وَمَنشَأُ تَهيامي وَمَلعَبُ غُزلاني

كَأَن لَم يَصِلني فيهِ ظَبيٌ يَقومُ لي ... لَماهُ وَصِدغاهُ بِراحي وَرَيحاني

فَسَقياً لِوادِيهِم وَإِن كُنتُ إِنَّما ... أَبيتُ لِذِكراهُ بِغُلَّةِ ظَمآنِ

فَكَم يَومِ لَهوٍ قَد أَدَرنا بِأُفقِهِ ... نُجومَ كُؤوسٍ بَينَ أَقمارِ نَدمانِ[1]

في هذه الأبيات تعيش الذات الشاعرة اغترابًا مكانيًا، فقد شاج قلبها وكدر وانتهى صبرها وامتلأت عيناها دموعًا غزيرة؛ تحسرًا وتلهفًا وشوقًا إلى أيامها الماضية في مكانها القديم، فالذات الشاعرة ترى أن هذا المكان الجديد سيظل غريبًا بالنسبة لها، فقد أتاها الحزن والتوجع والشكاية محل الحب وطيب النفس والسرور، وجاءها أشخاص في هذا المكان بدل إخوانها وأحبابها خُوَّانٌ ليسوا بأصدقاء ولا بأوفياء، فإن مكان ألفة الشاعر القديمة لم يعادله أي شيء في الحاضر أو خارج الوطن، فما كل بياض براق يبدو بشحمة، ولا كل مرعى يدل على نبات (السعدان)، فلم يعد شيءٌ لدى الذات الشاعرة كالماضي؛ فما الوطن كالسابق، وما الأشخاص يشبهون هؤلاء الأشخاص الذين تعلقت بهم، فقد تعلن

(1) ابن خفاجة: ديوانه، ص٣١٦.

الذات الشاعرة حزنها لاهتياج ذكرى موطنها الذي نشأت به واشتياقها إليه، فلم يعني أنها عند رحيلها عنه قد انفصل عنها وانقطع كل ما تربطها من ذكريات بهذا المكان، فهذا الوطن يجمع أمنياتها وكيانها وسرورها وسعادتها ورغباتها ولذاتها؛ فلذلك لم تستطع نسيانه وتجاوزه، وكم تتمنى وتأمل الذات الشاعرة أن تعيد إليها ذلك المكان بتفاصيله التي تشمل لحظات السرور والمتعة، فكان يضم المكان الطبيعة الخلابة والحيوانات، وجلسات أصحابها الذين كانوا يشبهون القمر في نورهم وجمال ذكرياتهم التي لا تنسى.

وتعبر الذات الشاعرة في موضع آخر من الديوان عن اغترابها المكاني بعدما اشتاقت إلى أماكن عيشها القديمة، وهي في ذلك تصف لنا تلك الأماكن قائلة:

أَلا هَل إِلى أَرضِ الجَزيرَةِ أَوبَةٌ فَأَسكُنَ أَنفاساً وَأَهدَأَ مَضجَعا

وَأَغدو بِواديها وَقَد نَضَحَ النَدى مَعاطِفَ هاتيكَ الرُبى ثُمَّ أَقشَعا

أُغازِلُ فيها لِلغَزالَةِ سُنَّةً تُحَطُّ الصَبا عَنها مِنَ الغَيمِ بُرقُعا

وَقَد فَضَّ عِقدَ القَطرِ في كُلِّ تَلعَةٍ نَسيمٌ تَمَشّى بَينَها فَتَضَوَّعا

وَباتَ سَقيطُ الطَلِّ يَضرِبُ سَرحَةً تَرِفُّ بِواديها وَيَنضَحُ أَجرَعا[1]

فكانت الذات الشاعرة في مكانها القديم تشعر بالتوافق والتناغم الروحي، حيث كانت تجد فيه ما يروق لها ويجذبها، فكانت تتمتع بسجية وطبيعة هذا المكان، فكان يضم حسن المرآى، حيث تسيل قطرات الندى على معاطف الحيوانات، وكانت فيه التلاع تفوح برائحة المسك والطيب، ويتساقط الندى على شجرة عظيمة بما فيها من محبوبة وذكرياتها، فالذات الشاعرة تعاني مرارة الغربة وأسى الفقد في ذلك الواقع الذي حلَّ بها إلى الوحشة والحزن.

وعندما تحن الذات الشاعرة إلى الأماكن عيشها القديمة، فإنها تعقد مقارنة بين تلك الأماكن، وبين مكانها الجديد الذي تشعر فيه بالغربة، فتعبر عن ذلك قائلة:

وَرُبَّ نَسيمٍ مَرَّ بي وَهوَ عاطِرٌ رَقيقُ الحَواشي لايُحَسُّ دَبيبا

وَجَدتُ بِهِ مِن ذَلِكَ الماءِ بَلَّةً وَمِن نورِ هاتيكَ الأَباطِحِ طيبا

فَصافَحتُ رَيعانَ النَسيمِ تَشَوُّقاً إِلَيها وَلازَمتُ القَضيبَ رَطيبا

([1]) ابن خفاجة: ديوانه، ص١٨٩.

وَقَـــد قَلَّـــدَ النُـــوّارُ جيـــداً لِرَبـــوَةٍ هُنـــاكَ وَنحـــراً لِلفَـــضاءِ رَحيبـــا
وَأَفـــصَحَتِ الورقـــاءُ فـــي كُـــلِّ تَلعَـــةٍ نَـــشيداً وَقَـــد رَقَّ النَـــسيمُ نَـــسيبا
وَكـــانَ عَلـــى عَهـــدِ الـــشَبابِ تَغَنِّيـــاً يَـــشوقُ أَخـــا وَجـــدٍ فَعـــادَ نَحيبـــا
دَعـــا لِغُـــروبِ الـــدَمعِ وَالـــدارُ غُربَـــةٌ فَلَـــم أَرَ إِلّـــا داعِيـــاً وَمُجيبـــا[1]

تغلب على الذات الشاعرة في هذه الأبيات أحاسيس الأسى والغم لغربتها وحنينها إلى مكانها الأول، وإعراضها وعدم تكيفها مع واقعها الحالي؛ حيث إنه لم يكن يثير حزنها وشعورها بالنفور غير ألفتها لمكانها القديم فقط، ولكن جمال طبيعة بلادها وحسنها أثارت ما هو هامدٌ في نفسها من ألم وكدر يأخذها بسبب ابتعادها عن وطنها.

فتصف الذات الشاعرة طبيعة بلادها الخلابة الفاتنة وتأخذنا بمخيلتها إلى ذلك الزمن الماضي لها، فنسيمها ذو الرائحة العطرة الطيبة يمر عليها برقة وسريان، وإنها ألقت في مكانها هذا نداوة ورطوبة بردت غلتها وأطفأت حرارة ظمأتها، بما فيه من رائحة الطيب الذي استمر في مروره وانتشاره بين البساتين. وصور الشاعر أنه قد تلمّس نسيم هواء بلاده الرطب وفروعه النادية وهاج في نفسه الشوق والحنين إليه.

ويستمر الشاعر في رسمه لصورة بلده في صورة رائعة من الحسن، فكان الفضاء متسع يشبه نحر الحسناوات وكأنه تزين بالزهر من حوله كقلادته، وأصبح الحمام يغني ويرفع صوته طربًا متناغمًا مع النسيم، فتخبرنا الذات الشاعرة بأن ذلك المشهد الذي رسمته لنا كان يمثل لها فترة زاهية وطيب زمانها وأفضله، فكانت في ريعان شبابها وقد تحول كل ذلك إلى فجيعة الغربة والكبر، وتنقل لنا الذات الشاعرة حالتها النفسية فقد نفد دمعها وجف بعد أن أدركت غربتها فلم تجد فيها حبيبًا ولا مجيبا.

المبحث الثالث/ الذات المغتربة اجتماعيًا:

هذا النوع من الاغتراب نجد فيه الذات الشاعرة تعاني مرارة البعد والجفاء والوحشة من الأهل والإخوان والأصدقاء، إذ نجدها تسكن بينهم وكأنها غريبة عنهم، ولا تجد منهم ألفة أو قربًا، ومن ثم فهي تشعر بذلك الاغتراب الذي يملؤها حسرة وحزنًا وألمًا، وهي في هذا تصور إحساسها وغربتها وتنقلها لنا داخل أشعارها المتعددة، حيث نراها تقول في إحدى قصائد الديوان، وهي تشكو ألم الفقد والحرمان لبعض إخوانها الذين رحلوا:

(1) ابن خفاجة: ديوانه، ص٣٢.

أَلا عَـرَّسَ الإِخـوانُ فـي سـاحَةِ البِلـى وَمـا رَفَعـوا غَيـرَ القُبـورِ قِبابـا
فَـدَمعٌ كَمـا سَـحَّ الغَمـامُ وَلَوعَـةٌ كَمـا أَضـرَمَت ريـحُ الـشَمالِ شِـهابا
إِذا اِسـتَوقَفَتني فـي الـدِيارِ عَـشِيَّةً تَلَـذَّذتُ فيهـا جيئَـةً وَذَهابـا
أَكُـرُّ بِطَرفـي فـي مَعاهِـدِ فِتيَـةٍ ثَكِلـتُهُمُ بـيضَ الوُجـوهِ شَـبابا
فَطـالَ وُقـوفي بَـينَ وَجـدٍ وَزَفـرَةٍ أُنـادي رُسـوماً لاتُحيـرُ جَوابـا
وَأَمحـو جَميـلَ الـصَبرِ طَـوراً بِعَبـرَةٍ أَخُـطُّ بِهـا فـي صَـفحَتَيَّ كِتابـا
وَقَـد دَرَسَـت أَجـسامُهُم وَدِيـارُهُم فَلَـم أَرَ إِلّـا أَقبُـراً وَيَبابـا
وَحَـسبيَ شَـجواً أَن أَرى الـدارَ بَلقَعـاً خَـلاءً وَأَشـلاءَ الـصَديقِ تُرابـا[1]

تشكو الذات الشاعرة في هذه الأبيات اغترابها عن أحبتها وإخوانها الـذين فرقـت بينهم ساحة الموت والهلاك، فقد غلب عليها حالة الحزن والكآبة حتى أصبح دمعها يتساقط منهمرًا كالمطر من كثرة الحسرة، فلم تستطع نسيان ذكرياتها معهم وإنهـا عنـدما تـزور ديارهم تتلذذ بذلك وتسعد لتذكرها بأيام شبابهم، وإن الذات الشاعرة تخالج نفسها اللوعة فقد فقدت الأحبة وهم في مقتبل العمر، وتعبر قهرًا عن حالها قائلة إنها قـد طالـت زيارتهـا للقبور التي لا حياة بها، فهي تنادي على أحبائها وتصرخ فيهم ولكن هذه القبـور لا تنطـق ولا تجيب فما زال حزنها ودمعها منسكبًا على وجنتيها. فقد تعيش الذات الـشاعرة معأنـاة الفقد والاغتراب وحرقة الفؤاد فما بقى من إخوانها وديارهم إلا قبـور وخـراب، فالـديار أصبحت خاوية من أصحابها وصارت الاشلاء ترابًا.

وقد يفرق الدهر بيمن الغخوان، ويبعد الزمان بين الأخـلاء والأصـدقاء، فتـشكو الذات الشاعرة ذلك الفراق، وهي تشعر بأصعب أنواع الغربة والاغتـراب بـسبب ذلـك، فنجدها تقول:

أَلا إِنَّ دَهـراً قَـد تَقاضـى شَـبيبَتي وَصَـحبي لَـدَهرٌ قَـد تَقاضـى المَرازِيـا
وَقَد كُنتُ أُهـدي المَـدحَ وَالـدارُ غُربَـةٌ فَكَيـفَ بِإِهـدائي إِلَيـهِ المَراثِيـا
أَأَحبابَنـا بِالعَـدوَتَينِ صَـمَمتُمُ بِحُكـمِ اللَيـالي أَن تُجيبـوا المُنادِيـا

(1) ابن خفاجة: ديوانه، ص٦٠.

فَقَيَّـدتُ مِـن شَـكوى وَأَطلَقـتُ عَبرَتـي وَخَفَّـضتُ مِـن صَـوتي هُنالِـكَ شـاكِيا
وَأَكبَـرتُ خَطبـاً أَن أَرى الـصَبرَ بالِيـاً وَراءَ ظَـلامِ اللَيـلِ وَالـنَجمَ ثاوِيـا
وَما كـانَ أَحلـى مُقتَـضى ذَلِـكَ الجَنـى وَأَحـسَنَ هاتيـكَ المَرامـي مَرامِيـا
وَأَنـدى مُحَيّـا ذَلِـكَ العَـصرِ مَطلَعـاً وَأَكـرَمَ نـادي ذَلِـكَ الـصَحبِ نادِيـا
زَمـانٌ تَـوَلّى بِالمَحاسِـنِ عـاطِرٌ تَكـادُ لَياليـهِ تَـسيلُ غَوالِيـا
تَقَـضّى وَأَلقـى بَـينَ جَنبَـيَّ لَوعَـةً أُبـاكي بِهـا أُخـرى اللَيـالي البَواكِيـا
كَـأَنّي لَـم أَنـسَ إِلـى اللَهـوِ لَيلَـةً وَلَـم أَتَـصَفَّح صَـفحَةَ الـدَهرِ راضِـيا[1]

تشكو الذات الشاعرة في هذه الأبيات اغترابها عن إخوانها وأحبابها وانقطاعها عنهم الذي تسبب في إحساسها بالحزن والألم اللامتناهي، وكأنها ترمي لومها على الدهر الذي قضى على الصبا وفرقها عن أصدقاءها وخلانها وجعل المصائب ملازمة لها.

ومن ثم تحاول الذات الشاعرة أن توصل شكواها إلى إخوانها وتقول لهم أأصبحتم صامتين بحكم الموت والهلاك بدلًا من أن تستجيبوا لحاجتي إليكم؟! وترى الذات الشاعرة أن صبرها على الفراق أصبح لا وجود له خلف ظلام الليل الحالك والنجم المقيم أمامها.

فتعبر الذات عن حنينها واشتياقها وتعلقها بذلك الماضي السعيد وأقرانه عبر وصفها له بكلمات: "أحلى، أحسن، أمدى، أكرم"، فهو بالنسبة لها زمان امتلأ بمظاهر الجمال العطرة. فقد مر ذلك الزمن وتواصل حزنها وأصبحت هي مصابة بحرقة الحزن والغم تبكي حالها وحال أحبابها في لياليها المرهقة، فهي لم تجد ما يلهيها عن ألمها ولم تكن راضية عن ما فعله بها الدهر من فقدان وغربة.

(1) ابن خفاجة: ديوانه، ص٣٢٧.

النتائج:

جاء موضوع البحث في **(تشكلات الذات المغتربة في شعر ابن خفاجة الأندلسي)**، وقد أسفر البحث على مجموعة من النتائج، منها الآتي:

١-إن الذات قد اقتربت في مفهومها من مفهوم عدة مصطلحات أخرى كالأنا، والنفس؛ ولكنها في الوقت نفسه جاءت مختلفة عنهم.

٢- أصابت الذات الشاعرة لابن خفاجة الأندلسي بعض حالات الاغتراب، كالاغتراب الزمني والاغتراب المكاني، وكذلك الاغتراب الاجتماعي، وفي كل ذلك حاولت الذات الشاعرة أن تعبر عن تلك الحالات داخل قصائدها.

٣-جاء المكان بوصفه أحد أبرز الأسباب التي جعلت الذات الشاعرة تعيش حالة من الاغتراب؛ إذ إنها دائمًا ما تحن إلى أماكن عاشت بها من قبل، وفي الوقت نفسه ترفض أو ربما تكره ذلك المكان الذي تعيش فيه؛ لأنه يشعرها بالغربة والوحشة.

٤-عانت الذات الشاعرة مرارة البعد والجفاء والوحشة من الأهل والإخوان والأصدقاء؛ إذ نجدها تسكن بينهم؛ وكأنها غريبة عنهم، ولا تجد منهم ألفة أو قربًا، ومن ثمَّ فهي تشعر بذلك الاغتراب، الذي يملوها حسرة وحزنًا وألمًا، وهي في هذا تصور إحساسها وغربتها وتنقلها لنا داخل أشعارها المتعددة.

المصادر والمراجع:

المصادر:

١. ابن خفاجة الأندلسي: ديوانه، تحقيق: عبد الله سنده، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.

المراجع:

١. حامد عبد السلام زهران، علم نفس النمو- عالم الكتب، ط٦، سنة ٢٠٠٥م.
٢. الفيروز ابادى، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ٢٠٠٤م/ ١٤٢٥هـ.
٣. ابن منظور: لسان العرب أعد بناءه يوسف خياط ونديم مرعشلي، دار لبنان العرب، بيروت المجلد الأول مادة (ذات).
٤. عبدالله بن محمد طاهر تريسي، ثنائية الأنا والآخر(الصعاليك والمجتمع الجاهلي)، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب، دمشق، سوريا، العدد المزدوج ١٢٠- ١٢١، رمضان ذو الحجة ١٤٢١هـ، السنة الثلاثون.
٥. محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة، ط٢، ٢٠٠٣م، دار نوبار للطباعة، القاهرة.
٦. عزت قرني، الذات ونظرية الفعل، بناء الفلسفة الجديدة، دار قباء للنشر، القاهرة، ٢٠٠١ م.